

## تفسير سورة السجدة

وهي مكية

روى البخارى عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : كان النبى ﷺ يقرأ فى الفجر يوم الجمعة : ﴿ اَلَمْ . تَنْزِيلِ . السَّجْدَةِ وَ ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ ﴾ . ورواه مسلم (١) . وروى الإمام أحمد عن جابر قال : كان النبى ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿ اَلَمْ . تَنْزِيلِ ﴾ السجدة ، و ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ تفرد به أحمد (٢) .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اَلَمْ . تَنْزِيلِ الْكِتَابِ لَارِيبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْتَهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته . وقوله : ﴿ تَنْزِيلِ الْكِتَابِ لَارِيبَ فِيهِ ﴾ أى : لا شك فيه ولا مرية أنه منزل ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . ثم قال مخبراً عن المشركين : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ بل يقولون ﴿ أَفَرَّغْتَهُ ﴾ أى : اختلقه من تلقاء نفسه ، ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أى : يتبعون الحق .

﴿ اَللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا مُشْفِعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾

يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء ، فخلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، وقد تقدم الكلام على ذلك ﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا مُشْفِعٍ ﴾ أى : بل هو المالك لازمة الأمور ، الخالق لكل شيء ، المدبر لكل شيء ، القادر على كل شيء ، فلا ولى لخالقه سواه ، ولا شفيع إلا من بعد إذنه ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يعنى : أيها العابدون غيره ، المتوكلون على من عداه - تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو نديد ، أو وزير أو عدل ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

وقوله : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ ﴾ أى : ينزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة ، كما قال الله تعالى : ﴿ اَللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَظُنُّ بَطْنَهُنَّ بِتَنْزِيلِ الْأَمْرِ بَيْنَهُنَّ لِنَتَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] . وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سما الدنيا ، ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة ، وسلك السماء خمسمائة سنة . وقال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك : النزول من الملك فى مسيرة خمسمائة عام ، وصعوده فى مسيرة خمسمائة عام ، ولكنه يقطمها فى طرفة عين ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

(١) البخارى (٨٩١) ومسلم (٨٨٠ / ٦٥) .

(٢) السنن (٣ / ٣٤٠) والحديث رواه الترمذى (٢٨٩٢) وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى والسلسلة الصحيحة (٥٨٥) .

﴿ ذَلِكْ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أى : المدير لهذه الأمور الذى هو شهيد على أعمال عباده ، يرفع إليه جليلها وحقيرها ، وصغيرها وكبيرها هو ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الذى قد عز كل شيء فقهره وغلبه ، ودانت له العباد والرقاب ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعباده المؤمنين . فهو عزيز فى رحمته ، رحيم فى عزته ، وهذا هو الكمال : العزة مع الرحمة ، والرحمة مع العزة ، فهو رحيم بلا ذل .

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَفَوَّحَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً انه الذى أحسن خلق الاشياء وأتقنها وأحكمها . وقال مالك ، عن زيد بن اسلم : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ قال : أحسن خلق كل شيء . كأنه جعله من المقدم والمؤخر . ثم لما ذكر خلق السموات والأرض ، شرع فى ذكر خلق الإنسان فقال : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ ، يعنى : خلق ابا البشر آدم من طين ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ أى : يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ يعنى : آدم ، لما خلقه من تراب خلقه سوا مستقيماً ﴿ وَفَوَّحَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ يعنى : العقول ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أى : بهذه القوى التى رزقكموها الله عز وجل . فالسعيد من استعملها فى طاعة ربه عز وجل .

﴿ وَقَالُوا آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ ﴿ قُلْ يَتُوفَّئِكُمْ رَبُّكُمْ إِلَى الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فى استبعادهم المعاد حيث قالوا : ﴿ إِنَّا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : تمزقت أجسامنا وتفرقت فى اجزاء الأرض وذهبت ، ﴿ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى : أننا لتعود بعد تلك الحال؟! يستبعدون ذلك ، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة ، لا بالنسبة إلى قدرة الذى يدهم وخلقهم من العدم ، الذى إنما امره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ؛ ولهذا قال : ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾

ثم قال : ﴿ قُلْ يَتُوفَّئِكُمْ رَبُّكُمْ إِلَى الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ : الظاهر من هذه الآية ان ملك الموت شخص معين من الملائكة ، وقد سمي فى بعض الآثار بعزرائيل ، وهو المشهور ، قاله قتادة وغير واحد ، وله اعوان . وهكذا ورد فى الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد ، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت . قال مجاهد : حويت له الأرض فجعلت له مثل الطست ، يتناول منها حيث يشاء . وقال كعب الأحبار : والله ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات . ينظر هل فيه أحد أمر أن يتوفاه .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُتَجَرِّمُونَ نَاكَسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَٰكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ

الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٢﴾ فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة ، وحالهم حين عاينوا البعث ، وقاموا بين يدي الله حقيرين ذليلين ، ناكسى رؤوسهم ، أى : من الحياء والحجل ، يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أى : نحن الآن نسمع قولك ونطيع امرك ، كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [ مريم : ٣٨ ] . وكذلك يعمدون على أنفسهم باللامامة إذا دخلوا النار بقولهم : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [ الملك : ١٠ ] . وهكذا هؤلاء يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِنَا ﴾ أى : إلى الدار الدنيا ﴿ نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أى : قد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق ولقاءك حق ، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون آيات الله ويخالفون رسوله ، كما قال : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ قَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُنْكَدِبُ آيَاتِ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [ الانعام : ٢٧ - ٢٩ ] . وقال ههنا : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ الْإِنسَانِ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمَّ جَمِيعًا ﴾ [ يونس : ٩٩ ] . ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أى : من الصنفين ، فدارهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها ، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك . ﴿ فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أى : يقال لاهل النار على سبيل التقرير والتوبيخ : ذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم به ، واستبعادكم وقوعه ، وتناسيكم له ، إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ، ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ أى : سنعاملكم معاملة الناس ؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء ، بل من باب المقابلة ، كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ [ الجنات : ٣٤ ] .

وقوله : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : بسبب كفركم وتكذيبكم ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا . إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا . جَزَاءً وَفَاقًا . إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا . وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا . وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا . فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [ النبا : ٢٤ - ٣٠ ] .

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أى : إنما يصدق بها ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ أى : استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً ، ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى : عن اتباعها والانقياد لها ، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [ غافر : ٦٠ ] .

ثم قال تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ يعنى بذلك : قيام الليل ، وترك النوم والاضطجاع على الفراش الوطية . قال مجاهد والحسن فى قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ ﴾ يعنى بذلك : قيام الليل . وعن أنس ، وعكرمة ، ومحمد بن المنكدر ، وأبى حازم ، وقتادة : هو الصلاة بين العشاءين . وعن

انس أيضاً : هو انتظار صلاة العتمة . رواه ابن جرير بإسناد جيد . وقال الضحاك : هو صلاة العشاء فى جماعة ، وصلاة الغداة فى جماعة . ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أى : خوفاً من وبال عقابه ، وطمعاً فى جزيل ثوابه ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والتمعية ، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم فى الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ ، كما قال عبد الله بن رَوَاحَةَ رضى الله عنه :

وفيناً رسولُ الله يتلُو كتابه      إذا انشقَّ معرُوفٌ من الصُّبحِ ساطعُ  
ارانا الهدى بعد العمى فقلوبنا      به موقناتٌ أن ما قال واقع  
بيتٌ يجافى جنبه عن فراشه      إذا استفتلتُ بالمُشركين المضاجعُ

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود ، عن النبي ﷺ قال : « عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وطائه ولحافه ، ومن بين أهله وحيه (١) إلى صلاته ، [ فيقول ربنا : أيا ملانكتى ، انظروا إلى عبدى ، ثار من فراشه ووطائه ، ومن بين حبه وأهله إلى صلاته ] (٢) رغبة فيما عندى ، وشفقة بما عندى . ورجل غزا فى سبيل الله ، عز وجل ، فانهزموا ، فعلم ما عليه من الفرار ، وما له فى الرجوع ، فرجع حتى أهرىق دمه ، رغبة فيما عندى وشفقة بما عندى . فيقول الله ، عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى ، ورهبة بما عندى ، حتى أهرىق دمه . » وهكذا رواه أبو داود عن حماد بن سلمة ، به بنحوه (٣) . وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبي ﷺ فى سفر ، فأصبحت يوماً قريباً منه ، ونحن نسير ، فقلت : يا نبي الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار . قال : « لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . » ثم قال : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفى الخطيئة ، وصلاة الرجل فى جوف الليل . » ثم قرأ : ﴿ تَجَافَى جُوهَهُمْ عَنِ الْمُضَاجِعِ ﴾ حتى بلغ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ . ثم قال : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ » فقلت : بلى ، يا رسول الله . فقال : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله . » ثم قال : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ » فقلت : بلى ، يا نبي الله . فأخذ بلسانه ثم قال : « كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا » فقلت : يا رسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم - أو قال : على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم . » رواه الترمذى وابن ماجه . وقال الترمذى : حسن صحيح (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم فى الجنات من النعيم المقيم ، واللذات التى لم يطلع على مثلها أحد ، لَمَّا اخفوا اعمالهم أخفى الله لهم من الثواب ، جزاء وفاقاً ؟ فإن الجزاء من جنس العمل . قال الحسن البصرى : أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر . قوله :

(١) فى المطبوعة : « حبه » بالياء الموحدة ، وغير منقوطة بالخطوطة والثبت من المسند .

(٢) ما بين المعقوفتين ليس فى الخطوطة ، وأثبتناه من المسند والمطبوعة .

(٣) المسند ( ٣٩٤٩ ) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود ( ٥٢٣٦ ) .

(٤) المسند ( ٥ / ٢٣١ ) والترمذى ( ٢٦١٦ ) وابن ماجه ( ٣٩٧٣ ) وصححه الألبانى .

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآية ، روى البخارى عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « قال الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . قال أبو هريرة : فاقروا إن شئتم : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ . ورواه مسلم والترمذى . وقال الترمذى : حسن صحيح <sup>(١)</sup> . ثم روى البخارى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، دُخْرًا مِّن بَلِّهِ مَا أُطْلِعْتُمْ عَلَيْهِ » ، ثم قرأ : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ . قرأ أبو هريرة : « قُرَاتٍ أَعْيُنٍ » . انفرد به البخارى من هذا الوجه <sup>(٢)</sup> .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى قال : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . أخرجه فى الصحيحين . قال : ورواه الترمذى بمثله . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح <sup>(٣)</sup> . وعن أبى هريرة ، قال حماد : أحبه عن النبى ﷺ قال : « من يدخل الجنة ينعم لا يبأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، فى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . رواه مسلم <sup>(٤)</sup> . وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد الساعدى ، قال : شهدت من رسول الله ﷺ مجلسا وصف فيه الجنة ، حتى انتهى ، ثم قال فى آخر حديثه : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿تَجَنَّفُوا جَنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ إلى قوله : ﴿يَعْمَلُونَ﴾ . وأخرجه مسلم <sup>(٥)</sup> . وروى مسلم عن المغيرة بن شعبه - يرفعه إلى النبى ﷺ - قال : « سأل موسى ، عليه السلام ربه عز وجل : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجرى بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة . فيقول : أى رب ، كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل مُلْكٍ مَلِكٍ من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب . فيقول : لك ذلك ، ومثله ، ومثله ، ومثله ، ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت رب . فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتئت نفسك ولذت عينك فيقول : رضيت رب . قال : رب ، فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر » ، قال : ومصدقه من كتاب الله : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ . ورواه الترمذى ، وقال : حسن صحيح ، قال : ورواه بعضهم ولم يرفعه ، والمرفوع أصح <sup>(٦)</sup> .

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ ﴿١٥﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابِ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى

(١) البخارى (٤٧٧٩) ومسلم (٢٨٢٤ / ٢) والترمذى (٣١٩٧) .

(٢) البخارى (٤٧٨٠) . «مِن بَلِّهِ» : بَلِّه هنا بمعنى كيف ، والمعنى : من أين اطلاعكم على هذا القدر الذى تقصر عقول البشر عن الإحاطة به .

(٣) المسند (٢ / ٣١٣) ؛ البخارى (٨٤٩٨) ومسلم (٢٨٢٤ / ٤) والترمذى (٣٢٩٢) .

(٤) مسلم (٢٨٣٦ / ٢١) .

(٥) المسند (٥ / ٣٣٤) ومسلم (٢٨٢٥ / ٥) .

(٦) مسلم (١٨٩ / ٢٩٣) والترمذى (٣١٩٨) .

دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِنَا رَبِّدٍ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن عدله أنه لا يساوى فى حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله ، بمن كان فاسقاً ، أى : خارجاً عن طاعة ربه مكذباً لرسله إليه ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [البينة : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ ص : ٢٨ ] ، وقال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [ الخضر : ٢٠ ] ؛ ولهذا قال تعالى هنا : ﴿ إِنَّمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ أى : عند الله يوم القيامة . وقد ذكر عطاء بن يسار والسدسى وغيرهما : أنها نزلت فى على بن أبى طالب ، وعقبة بن أبى معيط ؛ ولهذا فصل حكمهم فقال : ﴿ أَمْ أَلْذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أى : صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها ، وهى الصالحات ﴿ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى ﴾ أى : التى فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿ نَزَلًا ﴾ أى : ضيافة وكرامة ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَأَمْ أَلْذِينَ فَسَقُوا ﴾ أى : خرجوا عن الطاعة ﴿ فَمَا وَرَأَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ كقولهم : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ الآية [ الحج : ٢٢ ] . قال الفضيل ابن عياض : والله إن الأيدى لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعمهم والملائكة تقمعهم . ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكذِّبُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً .

وقوله : ﴿ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ قال ابن عباس : يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها ، وما يحل بأهلها مما يبئلى الله به عباده ليتوبوا إليه . وروى مثله عن أبى بن كعب ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة . وقال ابن عباس - فى رواية عنه - : يعنى به إقامة الحدود عليهم . وقال البراء بن عازب ، ومجاهد ، وأبو عبيدة : يعنى به عذاب القبر .

وروى عبد الله بن الإمام أحمد عن أبى بن كعب فى هذه الآية : ﴿ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾ قال : المصيبات والدخان قد مضيا ، والبطشة والالزام . ورواه مسلم موقوفاً نحوه (١) وعند البخارى عن ابن مسعود ، نحوه (٢) . وقال عبد الله بن مسعود أيضاً ، فى رواية عنه : العذاب الأدنى : ما أصابهم من القتل والسبى يوم بدر . وكذا قال مالك ، عن زيد بن أسلم . قال السدسى وغيره : لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير ، فأصيبوا أو غرموا ، ومنهم من جمع له الامران .

وقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِنَا رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أى : لا أظلم ممن ذكره الله بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها ، كأنه لا يعرفها . قال قتادة : إياكم والإعراض عن ذكر الله ، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرّة ، وأعوذ أشد العوذ ، وعظم من أعظم الذنوب . ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك : ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴾ أى : سأنقم عن فعل ذلك أشد الانتقام .

(١) المستد ( ٥ / ١٢٨ ) ومسلم ( ٢٧٩٩ / ٤٢ ) .

(٢) البخارى ( ٤٨٢٠ ) .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِفَصْلِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى ، عليه السلام ، انه آتاه الكتاب وهو التوراة .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ﴾ قال قتادة : يعني به ليلة الإسراء . ثم روى عن أبي العالية الرياحي قال : حدثني ابن عم نبيكم - يعني ابن عباس - قال : قال رسول الله ﷺ : « أريت ليلة أسرى بي موسى بن عمران ، رجلاً آدم طوالاً جعداً ، كانه من رجال شتوة . ورايت عيسى رجلاً مربع الخلق ، إلى الحمرة والبياض ، مسبط الرأس ، ورايت مالكا خازن النار والدجال ، في آيات أراهن الله إياه » ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ﴾ : انه قد رأى موسى ، ولقى موسى ليلة أسرى به (١) . وروى الطبري عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ في قوله : « وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ قال : جعل موسى هدى لبني إسرائيل ، وفي قوله : ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ﴾ قال : من لقاء موسى ربه عز وجل (٢) .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أى : الكتاب الذى آتيناہ ﴿ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ كما قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ [ الإسراء : ٢ ] .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ أى : لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك نواهيہ وزواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤهم به ، كان منهم أمة يهدون إلى الحق بأمر الله ، ويدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . ثم لما بدلوا وحرفوا وأكفوا ، سلبوا ذلك المقام ، وصارت قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، فلا عمل صالحاً ، ولا اعتقاداً صحيحاً ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ قال قتادة وسفيان : لما صبروا عن الدنيا ، وكذلك قال الحسن بن صالح . قال سفيان : هكذا كان هؤلاء ، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يقتدى به حتى يتحامي عن الدنيا . قال وكيع : قال سفيان : لا بد للدين من العلم ، كما لا بد للجسد من الخبز . وقال ابن بنت الشافعي : قرأ أبى على عمى - أو عمى على أبى - سئل سفيان عن قول على : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ألم تسمع قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ قال : لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً . قال بعض العلماء : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ﴾ الآية [ الجنائيہ : ١٦ ، ١٧ ] ، كما قال هنا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِفَصْلِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أى : من الاعتقادات والاعمال .

﴿ أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولَىٰ السَّمْعِ ﴿٢٦﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنفُسُهُمْ

(١) مفسى تخريجه عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء .

(٢) الطبراني في المعجم الكبير (١٢ / ١٦٠) (١٢٧٥٨) وقال الهيثمي في الزوائد (٧ / ٩٣) : رجاله رجال الصحيح .

وَأَنْفُسَهُمْ أَفَلَا يَبْصُرُونَ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى: أو لم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسول ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية ، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل ، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر ﴿هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً﴾ [ مريم : ٩٨ ] ؛ ولهذا قال : ﴿ يمشون في مساكنهم ﴾ أى : وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها ، ذهبوا منها ﴿ كأن لم يبقوا فيها ﴾ [ الاحراف : ٩٢ ] ، كما قال : ﴿ فلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ [ النمل : ٥٢ ] ، وقال : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر مغطاة وقصر مشيد . أفلم يسروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ [ الحج : ٤٥ ، ٤٦ ] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ أى : إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل ، ونجاة من آمن بهم ، لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل متظاهرة ﴿ أفلا يسمعون ﴾ أى : اخبار من تقدم ، كيف كان أمرهم ؟

وقوله : ﴿ أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ﴾ بين تعالى لطفه بخلقه ، وإحسانه إليهم فى إرساله الماء إما من السماء أو من السبح ، وهو : ما تحمله الأنهار ويتحدر من الجبال إلى الأراضى المحتاجة إليه فى أوقاته ؛ ولهذا قال : ﴿ إلى الأرض الجرز ﴾ ، وهى التى لانبات فيها ، كما قال تعالى : ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزا ﴾ [ الكهف : ٨ ] ، أى : يسأ لا تثبت شيئاً .

وليس المراد من قوله : ﴿ إلى الأرض الجرز ﴾ أرض مصر فقط ، بل هى بعض المقصود ، وإن شئل بها كثير من المفسرين فليست المقصودة وحدها ، ولكنها مرادة قطعاً من هذه الآية ، فإنها فى نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطراً لتهدمت أبنيتها ، فيسوق الله إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة ، وفيه طين أحمر ، فيغشى أرض مصر ، وهى أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء ، وذلك الطين أيضاً لينبت الزرع فيه ، فيستغلون كل سنة على ماء جديد مطور فى غير بلادهم ، وطين جديد من غير أرضهم ، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود أبداً .

ولهذا قال تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ فليظن الإنسان إلى طعامه . أنا صبينا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شققاً . فأنبتنا فيها حبا . وعنباً وقضياً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائق غلبا . وفاكهة وأنا ﴾ [ عبس : ٢٤ - ٣٢ ] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ أفلا يبصرون ﴾ . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ إلى الأرض الجرز ﴾ قال : هى التى لا تمطر إلا مطرا لا يغنى عنها شيئاً ، إلا ما يأتىها من السيول . وعن ابن عباس ، ومجاهد : هى أرض اليمن . وقال الحسن : هى قرى فيما بين اليمن والشام . وقال عكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، وابن زيد : الأرض الجرز : التى لانبات فيها وهى مغبرة .

قلت : وهذا كقوله : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وجعلنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾ [ يس : ٣٣ - ٣٥ ] .

﴿ وَيَقُولُوا مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا

إِيْمَانَهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَاَنْظَرْنَا لَهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار ووقوع بأس الله بهم ، وحلول غضبه ونقمته عليهم ، استبعاداً وتكذيباً وعناداً : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ ﴾ أى : متى تنصر علينا يا محمد ؟ كما تزعم أن لك وقتاً تدال علينا، ويتقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما تراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين ! قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ﴾ أى : إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه فى الدنيا وفى الآخرة ﴿ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكْ يَنْفَعَهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَبَّ اللَّهُ الَّذِي قَدْ خَلَقَ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [ غافر: ٨٣ - ٨٥ ]، ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعده النجعة ، وأخطأ فأفحش ، فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إيلام الطلقاء ، وقد كانوا قريباً من الفين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم؛ لقوله: ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ، وإنما المراد الفتح الذى هو القضاء والفصل ، كقوله تعالى: ﴿ فَاقْتَحِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ قَضَاءً وَتَجِيئِي مَنْ مَبِيِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ الشعراء: ١١٨ ] ، وكقوله: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ ﴾ [ سبا: ٢٦ ] ، وقال تعالى: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [ إبراهيم: ١٥ ]، وقال: ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [ البقرة: ٨٩ ]، وقال: ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ [ الانفال: ١٩ ] .

ثم قال : ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَاَنْظَرْنَا لَهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾ أى : أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك ، كقوله: ﴿ اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [ الانعام: ١٠٦ ]، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك ، وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد .

وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾ أى : أنت منتظر، وهم منتظرون، ويتربصون بكم الدوائر ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّهُنَّ الْمُتُونِ ﴾ [ الطور: ٣٠ ] ، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله، فى نصرتك وتأييدك ، وسيجدون غم ما ينتظرونه فيك وفى أصحابك ، من وبيل عقاب الله لهم ، وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل .